منها يقينا الحروف الحلقية (ح.ع.غ) . والحروف (ص. ض. ط. ظ. ق) تفخيما لحروف (س. د. ت. ذ. ك) ، وباحتمال شديد ما بقي من الحروف ، كما سيأتي في الحلقات القادمة بشيء من التفصيل .

لايجرح هذا التصنيف المرحلي أن يكون الانسان العربي قد اهتدى إلى أصول أصوات بعض الحروف الرعوية المحتملة في مراحل زراعية أو غابية سابقة ، مادام قد هذبها وطورها واعتمد صدى أصواتها في النفس تعبيراً عن حاجاته ومعانيه في المرحلة الرعوية ، كما سيأتي في الحديث عن معاني حروف المعاني .

ولقد اعتمدت في هذا التصنيف المرحلي أدلة كثيرة ، منها التاريخي الأثري ، ومنها الاجتماعي والنفسي والمهني واللغوي وما إليها . ولكن اختصاراً للحديث وحصراً له ، سنكتفي في الحلقات القادمة بسرد الأدلة اللغوية ، لانتطرق إلى سواها إلا عند الضرورة .

على أن هذا التصنيف سيلاقي معارضة شديدة ممن ينكرون على اللغة العربية فطرتها ، وعلى أصوات الحروف العربية موحيات معانيها .

وسيرى هؤلاء المعرّضون أن لكل حرف عربي معانيه ووظائفه التي استمدها من خصائصه الايمائية أو الايحائية ، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية . وسوف يرون أنه لايمكن تعليل هذه الخصائص والمعاني إلا بالتسليم بانتماء الحروف العربية إلى مراحل الحياة الثلاث آنفة الذكر .

ولما كان معظم حروف المعاني مؤلفا من حرف واحد أو حرفين ، فإنها بلاشك هي أقدم المستحاثات اللغوية وألصقها طبيعة ووظيفة بمراحل إبداع حروفها . وسيجد القارىء الحيادي بمعرض الكشف عن أصول معانيها مدى صدق تصنيفنا الحروف العربية ، ليس إلى ايمائي وإيحائي فحسب ، وإنما إلى غابي وزراعي ورعوي أيضا .

الحرف العربي والشخصية العربية

مدخل لابد منه :

هذا المدخل ، ليس مجرد تمهيد مدرسي يعرّف القارىء بهذه الدراسة ، أو خلاصة جامعة لبنودها ، أو دليلا نظريا يهدي إلى مسالكها ، فحسب .
وإنما هو فوق ذلك ، محضر موجز لندوة فكرية مضمرة ، قد استمر الحوار فيها بيني وبين الحروف العربية أعواما عديدة .
فكان لابد من هذا المدخل ، يلملم من جوانب ذلك الحوار الطويل في مخطط عام يجعل من هذه الدراسة وحدة متماسكة ، على تعدد قضاياها وتشعب مشاكلها وإشكالاتها .

أولا : في موقع هذه الدراسة :

هذه الدراسة تعنى مبدئيا بأصوات الحروف العربية كوحدات صوتية (فونيمات) ، ولذلك فهي تتداخل مع علم الصوت العضوي (الفوناتيك) .
كما تقوم أصلا على صدى أصوات الحروف العربية في النفس استشفافا لخصائصها ومعانيها ، لتتماس بذلك مع علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) .
وهكذا ، فإن هذه الدراسة هي ألصق ما تكون بعلم النفس اللغوي ، وبعلم الأصوات السمعي ، بعض من علوم اللغة الحديثة .
وكيلا يتبادر إلى ذهن القارىء إني أنحو بهذه الدراسة إلى المساهمة في تحديث علوم اللغة العربية أسارع فأوضح بأنها محاولة جادة لتأصيلها ، بالعودة بها إلى أصول أصالتها ، وإن تداخلت وتماست مع ما ذكرته وما لم أذكره من علوم اللغة الحديثة ، مما يؤهلها لتأصيل بعض جوانب هذه العلوم أيضا .
ولئن أعرضت العلوم اللغوية الحديثة بما فيها الألسنية والأسلوبية والدلالات ... عن الخوض في أصول نشأة اللغات لضبابيتها التاريخية ، وعن التصدي لعلاقة أصوات الحروف بمعاني الألفاظ ، لانفصام هذه العلاقة بعامة في اللغات الغربية ، فإن هذه الدراسة قد انطلقت من هاتين المسألتين بالذات للبرهان على فطرية اللغة العربية وأصالتها ، مما يحفظها من مزاجية علماء اللغة المحدثين ومن النزوات الشعرية والأدبية ، ومن مختلف الغزوات الثقافية المضادة ، في كل ما يتعارض مع مقومات أصالتها .

فنشأة اللغة العربية التاريخية والاجتماعية والثقافية ، تختلف عنها في اللغات الغربية التي كانت مثار تأملات علمائها وموضع تطبيق نظرياتهم في علومهم اللغوية الحديثة .

وهكذا ، فإن هذه الدراسة ، بما تلقيه من أضواء جديدة على الجوانب التاريخية والصوتية معا من خصائص اللغة العربية ، وعلى العلاقة الجدلية بين

الحرف العربي والشخصية العربية ، من شأنها أن تجعل علماء اللغة الغربيين والعرب المحدثين يعيدون النظر في القرارات القطعية التي اتخذت منذ القرن التاسع عشر بتحريم ارتياد هذه الآفاق من بحوثهم اللغوية . فما لم يصح في لغاتهم قد صح في اللغة العربية ، ولكن ما كان أشق التحقق من ذلك .

فهذه الدراسة كان لابد لها أن تتناول قضايا فكرية عديدة تتصل بعلوم الأصوات والنفس واللغة والتاريخ والآثار والاجتماع والفيزيولوجيا ، وما إليها من مسائل الفن والأخلاق ، مما عرضها بالضرورة إلى كثير من التعقيد . على أن أعقد ما في هذه الدراسة ، هو جانبها الصوتي النفسي .
فللكشف عن العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها ، لابد من الاستعانة بالمنهج الذاتي في علم النفس (الاستبطان) ، للاهتداء إلى خصائص أصوات الحروف ومعانيها . كما لابد أيضا من الاستعانة بالمنهج التمثيلي في علم النفس (التقمص) لمعرفة كيفية قيام الانسان العربي بإبداع أصوات حروفه وألفاظه ، للتعبير عن حاجاته ومعانيه .

وهذان المنهجان ، بصدد تعاملهما مع أصوات الحروف العربية ومعانيها ، يستلزمان رهافة في السمع ، وشفافية في المشاعر ، وتذوقا رفيعا في الأدب ، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية .

فكيما يستطيع القارىء أن يستخلص ما في صوت حروف ما من الأحاسيس الحسية أو المشاعر الانسانية لابد أن تتوافر فيه الحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا . ومن يفتقر لها قد يجد هذه الدراسة مجرد توهم لا رصيد له من حقيقة ، أو ضربا من الكلام المنمق الأنيق لا يقنع أحدا .

فالأستاذ محمد المبارك ، خريج جامعة السربون في باريس ، كان في مؤلفاته الأولى من كبار المتعصبين لرمزية الحرف العربي ، فاللفظة العربية كانت في رأيه ، مجرد مصطلح على معنى والحرف العربي لا يوحي بأي معنى من المعاني . لم يرجع عن هذا الرأي معتذرا ، ومشكورا إلا بعد أن أمضى بضعة عشر عاما في تدريس اللغة العربية والتأليف فيها ، كما سيأتي .

لذلك وتذليلا لهذه الصعوبات المتوقعة ، وترويضا لسمع القارىء غير المتخصص على استشفاف الخصائص الحسية والموحيات الشعورية الكائنة في أصوات الحروف العربية ، قد مهدت لهذا الجانب الصوتي النفسي من هذه الدراسة ، بفصل خاص عن الحواس الخمس ، ثم أتبعته بفصل آخر عن آراء علماء اللغة حول مسألة الايحاء في أصوات الحروف العربية .

كما أتبعتهما بثالث عن الايحاءات الحسية والشعورية في أصوات الحروف العربية ، قد تناولت فيه عمليتي (الاستبطان والتقمص) العائدتين إلى المنهجين الذاتي والتمثيلي في علم النفس .

ولا أكتم القارىء ، إني أعدت صياغة هذه الدراسة مرات عدة ، في محاولات متأنية لتبسيط قضاياها ، وإضفاء الصبغة الأدبية على شروحها ، كيما تكون في متناول المثقف العادي غير المتخصص ، فهي تنتمي إلى الفكر القومي بقدر ما تنتمي إلى الفكر اللغوي .

ومع ذلك أرى من المفيد أن أنبه منذ الآن إلى مشاق الرحلة التي تنتظرنا مع الحروف العربية عبر هذه الدراسة ، وإلى أنه لابد من استيعاب كل مرحلة من مراحلها قبل الانتقال إلى المرحلة التالية . فهذه الدراسة إنما هي حلقات مترابطة متكاملة ، قد قامت على منطلقات فكرية أكثرها مستحدث ، إذا ما فات

القارىء بعضها صعب عليه استيعاب ما يتلوها من الحلقات .

ثانيا – في المنهج الذي اتبعته مع هذه الدراسة :

لقد انطلقت في هذه الدراسة من مقولة فطرية اللغة العربية ، بمعنى أن أصوات حروفها مقتبسة مباشرة من الطبيعة المادية أو الانسانية ، وهذا يستتبع القول بأن معنى اللفظة العربية لا يزال كامنا في جذور أصوات حروفها ، وأنه بالتالي ليس إلا محصلة لمعاني حروفها .

ولئن كان علماء اللغة والآثار والتاريخ ، لم يعثروا حتى الآن على ما يؤكد فطرية اللغة العربية ، من نقوش أو آثار مادية غارقة في القدم ، إلا أن ذلك لا ينفي صحة هذه المقولة .

فاللغة العربية قد بدأت نشأتها الأولى على الهواء الطلق قبل الألف العاشرة قبل الميلاد . ثم ترعرعت في ظل حياة رعوية مشردة ، قصورها خيام ، وقلاعها ظهور مطايا ، وحصونها بطولات ، وآلهتها كواكب سماء ونجوم ، فكانت بذلك أقل لغات الدنيا حاجة إلى التعامل مع المادة الأرضية . ومع ذلك ، إذا كان ثمة آثار مادية من نقوش وسواها ، فهي لاتزال قابعة تحت ركامات من الرواسب والرمال .

وما أحسب أن ثمة من داع لانتظار معاول الاثاريين المنقبين ، كيما نتصدى نحن لمسألة فطرية اللغة العربية مادام قد بقي لنا من تلك المراحل الفارقة في ظلام ما قبل التاريخ آثار مادية ثلاثة ، هي : الحرف العربي ، والانسان العربي ، والموطن الذي احتضنهما عبر مراحل التاريخ .

فهذه المعطيات الثلاثة ، إذا صحت مقولة فطرية اللغة العربية ، تفترض بالضرورة وجود علاقات أصيلة متبادلة فيما بينها ، ولابد لهذه العلاقات أن تخلف لنا عبر العصور بعض المستحاثات الأثرية ، سواء في طيات أصوات الحروف العربية ، أو في الطابع الشخصي المميز للانسان العربي بما يتوافق أصلا مع التاريخ الحضاري للجزيرة العربية . وللتحقق من صحة مقولة ((فطرية اللغة العربية)) ، قد اعتمدنا طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي .

فهذه الطريقة تفترض خطأ ، صحة الطلب ابتداء ، وهذا الطلب الذي افترضنا صحته يقودنا إلى نتيجة مباشرة متصلة به أشد الاتصال ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة . وهذه النتيجة المفترض صحتها تبعا لصحة الطلب تقودنا بالضرورة إلى نتيجة مباشرة ثانية ، فنبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة إياها .

وهكذا الأمر في سلسلة متماسكة من الافتراضات والنتائج ، إلى أن تتطابق النتيجة الأخيرة مع حقيقة واقعية جديدة لامجال لرفضها ، فتنسحب هذه الحقيقة بحكم المنطق الرياضي على ما سبقها من الافتراضات والنتائج .

أما إذا وقع العكس ، فتعارضت النتيجة الأخيرة مع حقيقة ثابتة ، فإن هذا التعارض ينسحب بالضرورة على الافتراضات السابقة ونتائجها .

ثالثا : حول سلسلة الافتراضات :

الافتراض الأول :

إذا افترضنا خطأ ، أن اللغة العربية فطرية النشأة ، فإن ذلك يقودنا مباشرة إلى القول ببداءة الحرف العربي ، وفجرية الانسان العربي ، وبعلاقة جدلية بينهما .

فلو أن الانسان العربي قد اقتبس حروفه من

شعب مغاير له في الجنس واللغة ، إذن لكانت الصلة انقطعت بين أصواتها وبين الطبيعة ، وبالتالي بين الجملة الصوتية للفظة العربية وبين معناها ، وذلك على مثال ما انقطعت الصلة بين الألفاظ في اللغات الغربية وبين معانيها ، لعلة اقتباسها من لغات أم أعرق منها في القدم .

فلقد استقر رأي علماء اللغة الغربيون على أن اللغة هي مجرد مصطلحات على معان ، ليس بينها وبين الطبيعة ، ولا بين أصوات حروفها ومعاني الألفاظ أي صلة ، فأجمعوا على القول بأن اللغة : ((هي التعبير الرمزي بالذات وإن كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية)) .

ولقد كرست الجزء الأول من هذه الدراسة بفصوله الخمسة ، للتثبت من صحة النتيجة الأولى المتأتية مباشرة عن الافتراض الأول حول صحة مقولة (فطرية اللغة العربية) ، من حيث بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، والعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية .

فبدأت هذا الجزء بفصل خاص عن نشأة اللغة العربية وفطريتها ، وعن علاقاتها باللغات المكناة بالسامية ، وعن صراعاتها معها . كما تناولت بالتمحيص آثار مملكة (ايبلا) العربية ، والخط المسند العربي ، وأصول الحركة الجسمية في لغتنا ، مستشهدا على ذلك ببعض مستحاثاتها من الحروف والألفاظ ، ثم عرجت أخيرا على دور الشعر العربي الأصيل في صناعة اللغة العربية وصياغة مفرداتها صياغة شاعرية محكمة ، تبرئها من كل شائبة اقتباس أو هجانة . وذلك كله للبرهان على صحة بداءة اللغة العربية وفطريتها .

كما كرست الفصل الثاني منه للحديث عن نشأة الانسان العربي ، وعن تطوره الحضاري في الجزيرة العربية عبر مراحله الحياتية الثلاث (الغابية والزراعية والرعوية) ، وعن جذور هذه المراحل في الحروف العربية . كما تطرقت إلى دور المرأة وواقعها في هذه المراحل ، سواء من حيث مساهمتها في إبداع الحروف العربية ، أو من حيث أوضاعها الاجتماعية . وذلك كله للتثبت من صحة (فجرية) الانسان العربي أيضا .

ولما كان حديثنا عن كل ما جاء في الفصلين السابقين عن بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، يتوقف أصلا على التثبت من أن الجزيرة العربية هي المهد الأصلي لكل منهما ، فلقد كرست الفصل الثالث للبرهان على أنها هي أصل الحضارات في المنطقة العربية . وبترجيح شديد هي مهد الحضارة الانسانية .

وتأكيدا للعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية كرست الفصلين (الرابع والخامس) للحديث عن ((شخصيتي)) الانسان العربي والحرف العربي ، للكشف عن القواسم المشتركة بينهما من حيث عوامل تكوينهما وصفاتهما . وذلك لاعطاء هذه الدراسة أبعادها الاجتماعية والثقافية أيضا ، مما يسهل على القارىء الاحاطة بمضامين بحوثها مهما تنوع وتتشعب .

وأخيرا ، وللتثبت من صدق العلاقة الجدلية بين ((الشخصية العربية)) والحرف العربي.قد كرست الفصل السادس من هذا الجزء للحديث عن مسألة دوران الحروف العربية في الشعر العربي الأصيل والقرآن الكريم . وذلك لأبرهن على ثبات مقومات ((الشخصية العربية)) الثقافية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، على الرغم من مظاهر الانحلال السياسي والاجتماعي التي اعترتها في عصور انحطاطها .

وهكذا ، فإن مقولة فطرية اللغة العربية ،

لاتراهن على بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي فحسب ، وإنما تراهن على أن الجزيرة العربية هي أيضا مهدهما ، ومهد الحضارات في المنطقة العربية .

ولكن علماء الآثار والتاريخ واللغات والأديان والأجناس ومن إليهم ، قد أهملوا الجزيرة العربية لظاهرة تصحرها ، في جميع تقصياتهم عن أصول الحضارة الانسانية البكر سواء في استئناس النبات أو الحيوان أو صناعة الأدوات أو أصول اللغات والعبادات وما إليها .

فبما أن المكتشفات الأثرية العصرية تشير إلى أن تلك الأصول الحضارية المضيعة ، تعود حتما إلى المنطقة العربية الراهنة ، فقد راح العلماء يبحثون عنها في البؤر الحضارية المعروفة في واديي الفرات والنيل ، وفي بلاد الشام دون جدوى . وذلك لأنهم أهملوا الجزيرة العربية في تقصياتهم لعلة انطماس معالمها الحضارية البكر تحت طيات الرمال في عتمات التاريخ . فكانوا بذلك كمن ضيع قطعة نقود ليلا في باحة معتمة ، فراح يبحث دون جدوى عنها بعيدا تحت أضواء المصابيح التي تقع على أطرافها .

وهكذا كان هؤلاء العلماء يحارون في تعليل سبب بلوغ بعض الآثار المكتشفة في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية درجة متقدمة من التطور والرقي ، مما لا جذور حضارية سابقة لها في هذه المناطق .

ولئن عزا بعضهم تلك الظواهر الحضارية المتطورة إلى الجزيرة العربية ، كاستئناس النبات والحيوان مثلا ، كما سيأتي ، فلقد تحفظ بعضهم الآخر على هذا الزعم لخطورة نتائجه التاريخية . ومن هنا أتت الصعوبة التي اكتنفت تقصياتي المضنية عن ريادة الجزيرة العربية في الشؤون الحضارية بدءا من الحرف العربي والخط المسند العربي ، وانتهاء بفنون استئناس النبات والحيوان وصناعة الأدوات . وذلك لم يكن لحرمان الجزيرة العربية من المكتشفات الأثرية فحسب ، وإنما لتعارض تلك الريادة من آراء معظم العلماء الذين عنوا بالمنطقة العربية .

على أن اعتراف أولئك العلماء بجهلهم معرفة منشأ تلك الأصول الحضارية قد هداني إلى استنباط المزيد من الأدلة القوية التي يصعب دحضها . على أن الجزيرة العربية هي مهد جميع الحضارات التي تشكلت حولها منذ الألف / 9 / ق.م ، في بلاد الشام وسواها كما سيأتي بشيء من التوسع والتفصيل .

الافتراض الثاني :

إذا صح أن الحروف العربية بديئة مقتبسة من الطبيعة ، فالمفترض أن يكون الانسان العربي قد استعان بها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية ، فكيف تم له ذلك ؟ فأجيب :

عندما لمس إنسان الجزيرة العربية الأشياء من حوله في فجره الحضاري البكر ، كان لابد له أن يعبر عن الأحاسيس اللمسية (خشونة ، نعومة ، حرارة ، برودة ، صلابة ...) ، بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، وذلك بغرض التواصل مع أبناء جنسه . وكان لابد لهذه الأصوات والحركات أن تتطور وتتهذب مع تطور ذلك الانسان ، عقليا وفنيا واجتماعيا وثقافيا ، فيسقط بعض الحركات الجسمية ، ويلطف بعضها الآخر ، وتختصر الأصوات الكثيرة في أصوات حروف معينة لابد أن تكون هي الأوحى على العموم بمختلف الأحاسيس اللمسية ، إذا ماصح هذا الافتراض .

وعندما تذوّق الأشياء وشمها ونظر إليها وسمع أصواتها ، وعانى بعض الانفعالات الشعورية ، كان

لابد له أن يعبر أيضا عن كل ذلك بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، على مثال ما فعل بالملموسات . وهكذا سقطت الحركات وتهذبت الأصوات عبر آلاف الأعوام ، فاختصرت في أصوات حروف معينة لابد أن تكون على العموم هي الأوحى بمختلف الأحاسيس الذوقية والشمية والبصرية والسمعية وبمختلف المشاعر الانسانية .

وشأن اللغة العربية بصدد هذه الصلة الايحائية أو الايمائية التمثيلية بين الحروف في الألفاظ وبين معانيها ، شأن جميع اللغات البديئة إلا أن بقاء هذه الصلة في لغة معاصرة ما ، وعدم بقائها في لغة أخرى ، يرجع مبدئيا إلى مدى ارتباط الأمة مبدعة أصوات حروفها وألفاظها ببيئتها البكر ، وإلى تمسكها بلغتها الأم ، مرحلة حياة بعد مرحلة ، إلى أن تنضج لغتها في مراحل حضارية راقية .

وهكذا تحولت الألفاظ في اللغات الغربية على العموم إلى رموز ومصطلحات على معان ، لأن أصوات حروفها المستوردة فقدت صلتها بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها ، كما أن صلاتها باللغات الأم كالسنسكريتية ، أو اليونانية القديمة ، أو اللاتينية ، وما إليها ، قد تقطعت عبر مراحل انحلالها في لهجات محلية تطورت مع الزمن إلى لغات حية على أيدي أدبائها وعلمائها وسياسيها .

أما الانسان العربي فقد ظل مقيما في جزيرته يمارس مهنة الرعي إياها ، في ذات البيئة التي نشأت فيها أصوات حروفه ، لتنضج على مهل العصور في لغة لا أبلغ ولا أفصح ، في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . ولذلك كان من طبيعة الأمور أن تتأصل هذه الصلة الفنية بين لغته وبين الطبيعة ، لتتأصل بذلك الصلة الراهنة بين الحروف العربية وبين الحواس والمشاعر الانسانية .

الافتراض الثالث :

إذا صح أن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحي الأصوات ذاتها بمختلف الأحاسيس والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف قبل أن تنتمي إلى القطاع اللغوي ، تنتمي أصلا إلى القطاع الصوتي . ولقد اقتضاني البرهان على هذا الافتراض أن أقوم بدراسة تجريبية مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس . فخلصت منها إلى تصنيف الحواس في هرمين حسيين اثنين :

الهرم الأول :

إن الحواس الخمس ، من حيث طبيعتها المادية ، أي من حيث تعاملها مع مادة الأشياء ، يمكن تصنيفها في هرم حسي سوى ، قاعدته في الأسفل وذروته إلى الأعلى . تبدأ قاعدة هذا الهرم بحاسة اللمس أشد الحواس مادية لتماسها المباشر مع مادة الأشياء التي تتعامل معها . ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية في الطبقة الثانية ، فهي لا تتعامل إلا مع الخصائص الذوقية في الأشياء . وتأتي حاسة الشم في الطبقة الثالثة ، إذ لاتتعامل إلا مع الروائح المنبعثة عن الأشياء . ثم تأتي حاسة النظر التي لاتتعامل إلا مع الصور والألوان المنعكسة عن الأشياء . أما حاسة السمع ، أقل الحواس مادية وأكثرها تجردا فهي تحتل قمة الهرم ، لأنها لاتتعامل إلا مع الفعاليات المنبعثة عن الأشياء على شكل موجات من الاهتزازات .

الهرم الثاني :

أما الحواس من حيث قدرتها عل استيحاء الأحاسيس الحسية واحتوائها ، فمن الممكن تصنيفها في هرم حسي ، منكوس ، ذروته في الأسفل ، وقاعدته إلى الأعلى .

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس في الذروة المنكوسة إلى أسفل . فملامس الأشياء لا توحي لنا بأي إحساس ذوقي أو شمّي أو بصري أو سمعي . وحاسة اللمس إنما هي كالغريزة الجنسية مغلقة على نفسها ، عمياء صماء عن كل إحساس آخر .

ثم تأتي حاسة الذوق في الطبقة الثانية . فمذاقات الأشياء تحتوي الأحاسيس اللمسية ، كل طعم يوحي بإحساس لمسي معين ، إلا أنه لا يوحي لنا بأي إحساس شمي أو بصري أو سمعي . ثم تأتي بعدها حواس الشم فالبصر فالسمع . كل حاسة منها تدرك أحاسيسها مباشرة ، كما تحتوي أحاسيس ما دونها من الحواس ، على مثال ماحظناه في الحاسة الذوقية . أما المشاعر الانسانية ، فهي لشفافيتها المتناهية وتجردها المطلق عن المادة ، تحتوي بالضرورة أحاسيس الحواس جميعا ، ولكن من خلال معانيها .

فالحالة الشعورية التي تثيرها كلمة نابية أو نظرة شذراء مثلا ، قد تعاني النفس من معناها ما تعانيه الأصابع من وخز الابر ، وما يعانيه الذوق من مرارة الطعم ، والشم من كريه الروائح والبصر من قبيح المناظر والسمع من ناشز الأصوات منكرها .

ولقد عقدت فصلا خاصا عن الشعور في هذه الدراسة للكشف عن خصائصه ودوره في عمليتي إبداع أصوات الحروف العربية واستيحاء معانيها ، قد خلصت منه إلى أن الشعور الذي يعي ذاته بذاته ، يمكن اعتباره حاسة من نوع خاص ، فكان تصنيف الشعور كحاسة سادسة فوق قمة الهرم الحسي الأول ، وعلى امتداد قاعدة الهرم الحسي الثاني .

الافتراض الرابع :

إذا صح أن الأصوات توحي فعلا بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الانسانية ، وأن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحي هذه الحروف بذات الأحاسيس والمشاعر .

وللتحقق من صحة ذلك ، أخذت أتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي للكشف عن خصائصها وموحياتها حرفا بعد حرف . ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الانسانية . لكل حاسة مجموعة من الحروف ، ولكل انفعال شعوري أساسي حرف خاص .

لقد اعتمدت بادىء الأمر تصنيفا خاصا للحروف العربية تبعا لموحياتها الصوتية ، دون أن أعير طريقة النطق بها أي انتباه . ولكن ما أن اهتديت مصادفة بعد إنجاز هذه الدراسة للمرة الأولى ، إلى أن الانسان العربي قد اعتمد الحركات الايمائية في بعض الحروف للتعبير عن معانيه ، كما في حرف (الفاء) ، حتى أعدت تصنيفها مجددا بما يتوافق مع خصائصها الايمائية أيضا .

وهكذا استقر الرأي أخيرا على جدول التوزيع التالي :

1 – لحاسة اللمس ستة حروف هي : (ت. ث. د. ذ. ك. م) .

2 – لحاسة الذوق حرفان إثنان هما : (ر. ل)

3 – لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي : (الألف المهموزة واللينة. ب. ج. س. ش. ط. ظ. غ. ف. و. ي).

4 – لحاسة السمع حرفان اثنان هما : (ز. ق).

5 – للمشاعر الانسانية سبعة حروف هي : (ص. ض. ن. خ. ح. هـ. ع).

أما حاسة الشم ، فلم أجد لها حرفا خاصا لها ، وإن كان لأصوات بعض الحروف إيحاءات شمية

إلى جانب ايحاءاتها الخاصة الأخرى . كما في الخاء للروائح القذرة ، والطاء للروائح العطرة .

الافتراض الخامس :

إذا صح ما انتهينا إليه ، من الافتراضات السابقة ونتائجها ، فالمفترض أن يكون لذلك كله سنده من واقع اللغة العربية ، وذلك بأن يكون لخصائص أصوات الحروف العربية دورها الفعال في تكوين معنى اللفظة العربية وتحديد مضمونه .

وللتحقق من صحة ذلك لجأت إلى المعاجم اللغوية أستفتيها الرأي عن مدى التوافق بين خصائص أصوات الحروف العربية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبها .

وعلى ألف مهل ، أخذت أتمعن صدى صوت كل حرف في نفسي ، وأتأمل طريقة النطق به لاستكشاف ما فيه من مختلف الخصائص الحسية والشعورية ، ايحائيها وايمائيها على حد سواء .

ثم قمت باستخراج معاني جميع المصادر التي تبدأ بكل حرف على حده ، أرتبها في جداول خاصة تربط بين معانيها روابط حسية أو معنوية . فإذا وجدت أن معاني المصادر قد التزمت بخصائص الحرف موضوع الدراسة بنسبة مئوية عالية ، اكتفيت بها على العموم . أما إذا كانت النسبة منخفضة فألجأ إلى استخراج معاني المصادر التي تنتهي به أيضا .

وربما عمدت في بعض الأحيان إلى استخراج معاني المصادر التي يتوسطها مثل هذا الحرف ، وذلك للتأكد من مدى تأثير خصائصه في معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها . وهكذا الأمر من حرف إلى حرف .

على أن المشقة البالغة التي عانيت منها كانت تتمركز في اختيار المصدر ومعناه من بين عشرات المشتقات وعشرينات المعاني للكلمة الواحدة التي يتصدرها الحرف ، أو يتوسطها ، أو يقع في نهايتها . فأيها هو المصدر الجذر الذي تفرعت منه المشتقات ؟ ثم أيها هو المعنى الأصل الذي تشعبت منه المعاني ؟

فمن ألفين وتسعمائة وواحد وثلاثين مصدرا ومشتقا تبدأ بحرف النون في المعجم الوسيط . ومن آلاف المعاني ، وقع اختياري على ثلاثماية وثمانية وستين مصدرا جذرا ، قد اعتمدت لكل منها معنى أصلا واحدا أو معنيين اثنين في قليل من الأحيان .

ولكن بما أن اللغة العربية فطرية النشأة مقتبسة من الطبيعة ، فلقد كان من منطق الأمور أن أختار المصدر صاحب المعنى المحسوس باعتباره الألصق بالطبيعة والأقرب إلى الفطرة ، على أنني لم ألتزم بهذه القاعدة الحسية أحيانا بصدد الحروف الشعورية (هـ. ع. ح. خ. ص. ن...) لأن العربي قد أبدعها أصلا للتعبير عن معان شعورية غير محسوسة في مرحلة لغوية متطورة كما سيأتي .

ولقد تبين لي أن المصادر قد التزمت معانيها بخصائص أصوات الحروف القوية التي تبدأ بها وبخصائص الحروف الرقيقة التي تنتهي بها ، بنسب راوحت بين (50 - 90) في المئة من مجموع المصادر .

الافتراض السادس :

إذا صح ما توصلنا إليه من خصائص الحروف العربية ومعانيها ، فالمفترض أن يكون المعنى الأصل لكل مصدر هو محصلة معاني حروفه .
وهذا هو الامتحان الأصعب .
ولكن هل تكفي معرفة معاني ثمانية وعشرين حرفا ، لمعرفة معاني عشرات الألوف من المصادر ومشتقاتها ؟

فإذا عرفنا معاني حروف مصدر معين ، وجمعنا بعضها إلى بعض ، هل يكون حاصل جمع معانيها هو معنى المصدر إياه ؟ ولكن معنى (كلم) غير معنى (لكم) ومعنى (برق) غير معنى (رقب) وهكذا .

ومنه يتضح أن ترتيب الحروف في المصدر له الدور الأهم في تحديد معناه ...
وهذه الأهمية ترجع أصلا إلى أن العربي كان في البدء يتقمص الحدث والشيء في الطبيعة فيعبر عن ذلك بأصوات حروف تتوافق خصائصها مع حركة الحدث أو مع شكل الشيء . وهكذا كان يخصص لكل منهما اللفظة التي يضاهي الحرف الأول منها بدايته ، ويضاهي الحرف الثاني منها وسطه ، ويضاهي الحرف الأخير منها نهايته . وذلك : (سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد) ، كما قال ابن جني في خصائصه .

وهكذا كان العربي يصور حركة الحدث وشكل الشيء في الطبيعة بأصوات حروفه تصويرا سينمائيا أو فوتوغرافيا ، إن صح التعبير . وطبيعي إذن أن تختلف مواقع الحروف في اللفظة تبعا لاختلاف حركة الحدث أو شكل الشيء ، وأن يختلف بالتالي معنى اللفظة باختلاف مواقع حروفها .

كما يضاف إلى ما سبق ، أن ترتيب أصوات الحروف في اللفظة ، سواء بما يضفي الانسجام على جملتها الصوتية ، أو بما يشيع الاضطراب والنشاز فيها ، له تأثيره البالغ أيضا في محصلة معاني حروفها . فالألفاظ التي في جملها الصوتية تناسق وانسجام ، قد خصها العربي على العموم بما يتوافق معها من المعاني التي فيها رقة وأناقة وجمال وسمو وفعالية ، وما إليها من جيد المعاني إلاّ مَا نَدَرَ . والعكس بالعكس صحيح .
وهكذا يتحدد معنى المصدر الجذر بأمور ثلاثة .

بخصائص حروفه ومعانيها ، ثم بكيفية ترتيبها ، وأخيرا بجملتها الصوتية .
وهذه المعطيات الثلاثة ، وإن زادت المسألة تعقيدا ، إلا أنها هي التي تكشف لنا عن تلونات معنى كل مصدر من المصادر ، وإن شارك غيره في ذات الحروف ليستحيل بذلك وجود لفظتين اثنتين في اللغة العربية بمعنى واحد ، وإن أشارتا إلى ذات الحدث ، أو ذات الشيء ، فالمترادفات معدومة في اللغة العربية .

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة للتثبت من صحة هذا الافتراض بعنوان (في التطبيق على خصائص الحروف العربية ومعانيها) ، قد استخرجت فيه معاني ستين كلمة .

والتزاما بموضوعية البحث ، وحذرا من تهمة التحيز لصالح هذه الدراسة بمعرض اختيار الأمثلة ، ورغبة مني في تحديد المعاني الأصل لكثير من مفاهيمنا المتداولة ، فقد عمدت إلى حصر هذه الأمثلة من الكلمات في قطاعات أربعة ، هي :

الأحداث في الطبيعة ، والقيم ، والنقائص ، والمفاهيم الفلسفية والاجتماعية . ولما كان كل ثلاثي قد جاء من مقطع جذر ثنائي الحروف بزيادة حرف ثالث ، وكان كل مقطع ثنائي قد جاء من حرف جذر بزيادة حرف ثان ، فلقد عمدت إلى استخراج معنى كل كلمة منها وفق طرائق أربع :

بالرجوع إلى معناها في المعاجم ، ثم إلى معاني أسرتها من المشتقات ، فإلى معاني مقاطعها الثنائية الحروف ، وأخيرا إلى خصائص حروفها المتحصلة لدينا من هذه الدراسة .

وقد لوحظ أن المعاني المستخرجة للكلمة الواحدة بحسب هذه الطرائق الأربع ، كانت على العموم تتضافر على الكشف عن معناها الأصل ،

بكثير من الدقة والوضوح ، كما كانت تكشف عن أسباب تنوع معاني المصدر الواحد ومشتقاته ، وإن تناقضت في بعض الأحيان . كما كانت تكشف أيضا عن أخطاء المعاجم في تفسير بعض الكلمات ولقد أشرت إلى تلك الأخطاء أحيانا .

ولكن كيف كان السبيل إلى معرفة المعنى غير الحسي في المفهوم الفلسفي المجرد ، من لفظة قد أبدعت أصلا للتعبير عن معنى محسوس ؟

لما كان من المتعذر أصلا على العربي تقمص المعاني المجردة غير المشخصة ، وهربا من الرمزية الاصطلاحية التي تتعارض مع نزعته الفنية ، فقد عمد إلى الافادة من وجود علاقة ذهنية معينة تربط بين المعنى الحسي لمصدر جذر معين ، وبين المعنى غير الحسي الذي يجول في خاطره ، فاستعار المصدر بالذات أو واحدا من مشتقاته ، للتعبير عن هذا المعنى المجرد .

وهكذا كان لابد لي من بذل المزيد من الجهد للكشف عن الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية الأصلية للكلمات وبين معانيها غير الحسية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمفاهيم الفلسفية ، كما في عقل البعير (ربطه) ، وعقل الأشياء (أدرك كنهها) . العدل ، بكسر العين والعدالة ، الحق بضم الحاء والحق بفتحها ...

ولو أنني اقتصرت في الأمثلة المضروبة من الكلمات ، على ما يدل على المعاني الحسية ، لما لاقيت في استنباط معانيها أي صعوبة تذكر ، بمجرد الرجوع إلى معاني حروفها . ولكنها الموضوعية في البحث ، والنزاهة في التقصي .

على أن هذه المفاهيم الفلسفية ، وما إليها من القيم والنقائص ، قد أتاحت لي فرصة نادرة للكشف عن قدرة ذهن العربي على التجريد انطلاقا من المحسوس ، وعلى مدى صدق حدسه الفني الذكي البكر بمعرض استنباط الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية للألفاظ وبين المعاني المجردة ، مما يكشف عن عمق نظرة الانسان العربي في الوجود .

وهكذا بانتهائنا مع الافتراض السادس إلى هذا التطابق بين معاني حروفها على وجه ما سبق بيانه ، فإن هذه الحقيقة تنسحب بالضرورة على جميع الافتراضات السابقة ، بدءا من فطرية اللغة العربية ، وانتهاء بما تحصل لدينا من خصائص الحروف العربية ومعانيها .

الافتراض السابع :

كل أثر فني أصيل يحمل بالضرورة نفحة من روح مبدعه الفنان ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر أو نحتا أو لوحة أو شعرا أو قطعة موسيقية . فلا يصعب على ذواقة الفنون الاصلاء مع هذا الطابع المميز ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب إلى أصحابها .

فإذا صح ما سبق وافترضناه ، من أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره ، فإنه لابد للحرف العربي أن ينطبع بطابع الشخصية العربية .

فتعامل الانسان العربي مع هذه المادة الصوتية من الحروف طوال آلاف كثيرة من الاعوام قد أنشأ علاقة عضوية متميزة بين شخصية الانسان العربي وبين خصائص الحرف العربي .

فكما أن الانسان العربي قد مازج بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية فيما هو أصيل من تقاليده وعاداته ومؤسساته ، فكانت المقامات الرفيعة وقفا على ذوي المواهب والمناقب والميول السامية والعكس بالعكس صحيح ، إلا فيما ندر ، كما سيأتي ذلك

مفصلا في كتابي المقبل ((الجذور الثقافية في الشخصية العربية)) – كذلك سلك الانسان العربي هذا النهج الفني الأخلاقي إياه مع حروفه ومعانيه . فالحروف التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية ، قد خصصها العربي بما يتوافق مع صداها المحبب في النفس ، من معاني الشهامة والسمو والصفاء والفعالية ، وما إليها من القيم الجمالية والانسانية . أما الحروف التي في أصواتها فجاجة واضطراب ورخاوة ونشاز ، فقد خصصها بما يناسبها من معاني القبح والنقائص الانسانية ، كما سيأتي مفصلا في دراسة الحروف العربية . روابط صحيحة متبادلة بين القيم الجمالية في أصوات الحروف العربية ، وبين القيم الانسانية في معانيها ، تؤكد صحة ماذهبت إليه من أنه (لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن) .

على أن الحرف العربي قد بلغ أقصى أبعاده الفردية في القافية ، قبة لكل بيت من الشعر الجاهلي ، ثم في الحروف النورانية يرتل المؤمنون أصواتها بخشوع ما يرتلون آيات الله في قرآنه الكريم .

كما بلغت شخصية الانسان العربي أقصى أبعادها في البطل قبة لكل قبيلة ، وفي النبوة قبة لكل مرحلة .

ومع هذا التطابق الأخير بين ((شخصية)) الانسان العربي ، و ((شخصية)) الحرف العربي نكون قد انتهينا من هذه السلسلة من الافتراضات ونتائجها إلى حقيقة ثابتة أخيرة تنسحب بحكم المنطق الرياضي على ما سبقتها من الافتراضات والنتائج إلى أن نصل إلى مقولة :
((فطرية اللغة العربية)) .

الحروف الجوفية / أهميتها / نشأتها

الحلقة الثانية :

أولا : حول أهمية الحروف الجوفية :

لما كانت الحروف الزراعية إيمائية كالحروف الجوفية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، فمن المستحسن أن نكشف عن أهميتهما معاً بمعرض مشاركتهما في تراكيب حروف المعاني .

فباستعراض حروف (الجر والعطف والنصب والجزم والنفي والشرط والنداء والجواب والاستقبال ...) إلى واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني ، نجد أن دوران بعض الحروف العربية فيها يبلغ أضعاف دوران بعضها الآخر .

وبإحصاء ما جاء في شروح معاني المفردات في كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لأحمد بن هشام) ومعظمها من حروف المعاني ، عثرنا على (87) مفردة ، تتألف الواحدة منها من حرف واحد أو أكثر ، قد شارك في تراكيبها (24) واحداً من حروف البناء ، تكررت فيها (185) مرة .

ولفت انتباهي أن دوران بعض الحروف الغابية والزراعية قد بلغ أضعاف دوران الحروف الرعوية . فلقد تكرر دوران الحروف الجوفية (الالف مهموزة ولينة) (الواو والياء) على التوالي (32 / 7 / 5) مرات . وتكرر دوران الحروف الزراعية (اللام والميم والفاء) على التوالي : (32 / 17 / 3) مرات .

أما الحروف الرعوية ، فكان دوران حروف (ن / ك / ع / ب / د / س) على التوالي : (15 / 11 / 10 / 8 / 7 / 6) مرات . وكان دوران بقية الحروف يتردد بين (1 / 3) مرات باستثناء حرفي (ذ / هـ) كان دورانهما (7 / 5) مرات .

وباستعراض واحد وثلاثين نوعاً من حروف المعاني في كتاب (جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني) عثرنا على (139) حرفاً ، قد شاركت في تراكيبها الحروف الجوفية (ا / و / ي) على التوالي (81 / 14 / 11) مرة . وشاركت الحروف الايمائية (ل .م . ف) على التوالي (55 / 28 / 2) مرة . وشاركت الحروف الرعوية الايحائية (ن. ك. ع. ب. د. س) على التوالي (43 / 10 / 2 / 4 / 1 / 2) مرة . وكان دوران بقية الحروف الرعوية يتردد بين (1 / 5) مرات . وذلك بنسب مقاربة لما لحظناه لدى ابن هشام .

ولقد شاركت الحروف الغابية والزراعية في تراكيب (119) حرفاً معنوياً من أصل (139) . مع الاشارة إلى أن الحرف المعنوي الواحد منها كان يتكرر بذاته في أكثر من نوع واحد من أنواع حروف المعاني ، لشتى الاستعمالات والمعاني .

وهذا يؤكد تفوق الحروف الغابية والزراعية على الحروف الرعوية في قطاع الحروف المعنوية أقدم المستحاثات الأثرية في اللغة العربية .

على أن الحروف الغابية والزراعية لايستمدان أهميتهما من كثرة دورانهما في حروف المعاني فحسب ، وإنما لأمرين آخرين أيضاً .

1 – كثرة دوران حروف المعاني التي تشارك في تراكيبها هاتان الفئتان من الحروف في اللغة العربية المحكية والمكتوبة .

2 – كثرة تفرعات معاني كل حرف معنوي منها وتنوع استعمالاته بما يتلاءم في معظم الأحيان مع خصائص ومعاني حروف البناء التي تشارك في تركيبه . فكان لحرف اللام لدى ابن هشام (29) معنى واستعمالاً . وكان لحروف (الهمزة والباء والفاء) على التوالي (14 / 14 / 15) معنى واستعمالاً .

وكان لحروف (عن . أو . في . على . إلى) على التوالي (13 / 12 / 10 / 9 / 8) معاني واستعمالات .

ولما كانت هاتان الفئتان من الحروف الايمائية هما قوام معظم حروف المعاني أقدم المستحاثات في اللغة العربية ، لبساطة تراكيب معظمها (من حرف واحد أو حرفين) ، فإن ذلك يقطع بأنهما هما الألصق طبيعة ونشأة بأصول اللغة العربية ، وبالتالي الأبعد غوراً في التاريخ من الحروف الرعوية .

ولما كانت سلامة استعمال حروف المعاني متوقفة على معرفة حقيقة معانيها ، فإنه لابد أولاً من معرفة أصول معاني الحروف الغابية والزراعية التي شاركت في تراكيب معظمها . ولمعرفة معاني هاتين الفئتين من الحروف ، لابد من العودة إلى نشأتهما البكر ، فنرى كيف ارتبطت معاني كل حرف منهما بخصائصه الايمائية التمثيلية ، فاستقر عليها طوال آلاف الأعوام .

وبذلك لا نفهم معاني حروف المعاني التي تشارك الحروف الايمائية في تراكيبها فحسب ، وإنما سنعرف أيضا الأسباب الحقيقية التي دعت الانسان العربي إلى استعمال كل واحد من الحروف المعنوية في معظم معانيه ووظائفه المتطورة الراهنة . وهذا ما يساعدنا على الكشف عن الأخطاء التي ارتكبت في شروح معاني بعض حروف المعاني ، سواء بإسناد وظائف لها لاتملك مؤهلاتها ، أو بعدم الاهتداء إلى وظائف بعضها الآخر .

ولئن كانت هذه الدعوة بلزوم الرجوع إلى أصول لغتنا بحثاً عن معاني حروفها ومفرداتها تتعارض مع ما استقر عليه رأي علماء اللغة الغربيين ومن تبعهم من دكاترتنا ، من حيث عدم جدواها ، إلا أن ما لايصح على اللغات الغربية الاصطلاحية ، يصح بالضرورة على اللغة العربية إذا كانت فطرية وهي فطرية النشأة فعلا كما سيأتي .

ثانيا : حول نشأة الحروف الغابية (ا. و. ي) :

كيما نستطيع تعليل الخصائص الايمائية التمثيلية التي علقت بهذه الحروف طوال آلاف كثيرة من الأعوام توصلا لمعرفة معظم وظائفها ومعانيها ، لابد لنا من الرجوع إلى المرحلة الحياتية التي نشأت خلالها ، ولو باقتضاب شديد .

فهذه الدراسة عن حروف المعاني هي إحدى التطبيقات الميدانية لمقولة (فطرية اللغة العربية) على واقع التاريخ والمعاجم اللغوية .

فالقول بفطرية اللغة العربية يستدعي القول بأن الانسان العربي هو وحده الذي أبدع حروفه ومن ثم لغته في الجزيرة العربية ، قد اقتبسهما مباشرة من الطبيعة المادية والانسانية ، وطورهما معاً عبر مراحله الحياتية . لا يجرح هذا القول أن يكون ثمة لغات أخرى تشارك اللغة العربية حروفها قد سميت خطأ أو تآمراً (بالسامية) . فهي عروبية جميعاً قذ خرجت من الجزيرة العربية مع الموجات الرعوية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير ألف عام بعد ألف ، قبل أن تستوفي لهجاتها أسباب تطورها . أما اللغة العربية وريثة تلك اللهجات ، فقد بقيت في مهدها تتفاعل مع ذات البيئة الصحراوية وذات الحياة البدوية على ألسنة وفي أسماع هزاجها وشعرائها وأنبيائها إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

والقول بغابية الحروف الجوفية يستدعي إقامة الدليل على أن المرحلة الغابية لها جذورها في هذه الحروف طرائق في التعبير تدل على معانيها .

ففي المرحلة الغابية أقدم المراحل الحياتية التي مر فيها إنسان الجزيرة العربية إبان العصر الجليدي الأخير قبل عشرات ألوف الأعوام ، كان لابد له أن يستخدم الصراخ والأصوات الهيجانية مترافقة مع الحركات الجسمية ، بمعرض التواصل مع أبناء جنسه . وشأنه في ذلك شأن أي إنسان بدائي آخر على وجه الأرض .

فالحركات الجسمية سواء كانت هيجانية أو عفوية أو إرادية ، إنما هي متأصلة في دنيا التواصل الانساني منذ ملايين الأعوام حتى الآن . فقد لاحظ الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أهمية الاشارة (أي الحركة الجسمية) بمعرض الدلالة على المعنى . كما يؤكد العالم (بيردوسل) مبدع علم الحركات الجسمية في الخمسينات من هذا القرن أن نسبة (سبعين في المئة) من التواصل بين الناس يتم بالحركات الجسمية (يد . رأس . عنق . شفة . لسان . فم . عين . حاجب ، جفن . قسمات . وجه . أصبع . ذراع . رجل . إلخ ...) .

وهذا الترافق الغريزي بين النطق والحركات الجسمية ، يعود إلى أن المناطق الدماغية المتعلقة بالنشاط التقني وصنع الأدوات مترابطة ترابطاً متبادلا مع المناطق الدماغية الخاصة بالنطق (كتاب علم اللغات لجورج مونين . ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 28 / 29) .

ولاشك في أن الانسان العربي قد أبدع المزيد من أنواع الصراخ والحركات الجسمية في المرحلة الغابية تلك تعبيراً عن حاجاته ومعانيه المحدودتين ، بما يتلاءم مع مستواه البدائي آنذاك . ولذلك كان من البداهة أن يسقط الكثير من تلك الأصوات والحركات في المراحل الحياتية التالية مما لم يعد بحاجة إليه . فلا يبقى منهما إلا ما يتلاءم مع مستوياته الحضارية المتطورة المثالية ، وما يلبي حاجاته ومعانيه المستجدة ، وإن بكثير من التلطيف والتهذيب .

ولما كانت أصوات الحروف الجوفية (ا . و . ي) والهمزة المزمارية هي أقرب الأصوات الانسانية إلى الهيجاني ، والأسهل نطقاً ، فقد امتدت إليها شعوب العالم جميعاً ، لا تخلو منها لغة حية ولا لهجة بدائية ، قد ورثناها كغيرنا من وسائل الاتصال في العهود الغابية . ولكن بعد أن تلطفت أصواتها الهيجانية وتهذيب حركات الرأس الايمائية التي كانت ترافقها عبر العصور ، فإننا لانكاد اليوم نستبينها عند النطق بأصواتها إلا بمزيد من التمعن والتدقيق .

فما هي هذه الحركات الايمائية الغابية ، وما هي دلالاتها ؟ ثم ما تطبيق ذلك على واقع المعاجم اللغوية وحروف المعاني ؟

كيف نهتدي إلى خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

الحلقة الثالثة :

أولا : حول أبعاد هذه المشكلة :

لقد عرضنا سابقاً أنه لابد أولاً من معرفة معاني حروف المباني توصلاً لمعرفة معاني حروف المعاني وأصول استعمالها . ولكن أين نعثر على معانيها ؟ .

ما أحسب أن عالم لغة عربية إلا وقد عمل على تحديد معاني بعض الحروف العربية ووظائفها في سياق أبحاثه اللغوية ، ولا سيما الصرفي والنحوي منها ، وبصورة خاصة ما يتعلق منها بحروف المعاني .

ولكن هل يصح لنا الركون إلى ما توصلوا إليه ، ولما يقل أحد منهم بانتماء الحروف العربية إلى المراحل الغابية والزراعية والرعوية ، ولم يتطرق إلى خصائصها الايمائية ؟ . مما يؤكد استحالة اهتدائهم إلى حقيقة معانيها جميعاً ، ولئن أصابوا في تحديد معاني بعضها باعتمادهم خصائصها الايحائية ، إلا أنه قد فاتهم ما يتعلق بالايمائي من خصائصها . وهكذا كان لابد لي من اتباع نهج خاص في هذا الصدد يراعي مسألة الايمائي والايحائي معاً في أصوات الحروف العربية ، ومسألة انتمائها إلى المراحل الحياتية الثلاث .

ويستحسن بنا أن نجري أولاً مقارنة سريعة بين نهج بعضهم ونهجي في استخلاص معاني حروف المباني .

ثانيا : علماء اللغة العربية بين النصوص ومعاني الحروف :

تنطلق هذه الدراسة من مقولة (فطرية اللغة العربية) كما أسلفنا سابقاً . بمعنى أن أصولها ضاربة في أعماق التاريخ قد اقتبست مباشرة من الطبيعة ، وليست مجرد مصطلحات عقلية قد تواضع الناس على معاني ألفاظها . فقد استقر رأي علماء اللغة العربية القائلين بفطرتها ، على أن معنى كل كلمة عربية هو بالضرورة محصلة معاني الحروف التي تشارك في تركيبها .

ولقد حاول (ابن جني) ، وهو من أقدم القائلين بفطرية اللغة العربية أن يستخلص معاني بعض الحروف بالرجوع إلى معاني الكلمات التي تشارك في تراكيبها . فاستهدى تارة بقاعدته الذكية : ((لا ينكر تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)) . واستهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى : ((حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)) . كما حاول

(العلايلي) وهو من أحدث القائلين بها أن يحدد معاني الحروف العربية : ((بما تسمح به النصوص)) .

ولئن أصابوا جميعاً في تحديد معاني بعض الحروف ، إلا أنهم قد أخطأوا في تحديد معاني بعضها الآخر .

ويقول ابن جني : (الحاء) فيه رقة ، وفي (الخاء) غلظة . فقيل (نضح) للماء القليل ، و (نضخ) للماء الكثير . ثم يقول : (القاف) فيه صلابة ، وفي (الخاء) رخاوة . فقيل (قضم) لليابس ، و (خضم) للرطب . وبذلك يكون ابن جني قد أسند لحرف (الخاء) خاصيتين لاتخلوان من التعارض .

وقد لاحظ الارسوزي العلاقة بين معاني التخريب في المصادر التي تبدأ (بالخاء) وبين ظاهرة التخريب في صوتها ، كما في : (خرَّ خريراً / خرب / خرس / خرم / خرق ...) فأسند هذه الخاصية الصوتية (للخاء) . وكان هذا الاكتشاف فاتحة اهتمامه باللغة العربية بمعرض البرهان على فطرتها .

أما العلايلي فقد قال عن (الخاء) بأنها : ((للمطاوعة والانتشار والتلاشي)) .

وهكذا لم يهتد أحد من علماء اللغة العربية إلى مختلف معاني (الخاء) ، لأنهم لم يتبعوا نهج الانسان العربي في إبداع كلماته تعبيراً عن معانيه بما يتوافق مع صدى أصوات حروفها في النفس . فالانسان العربي ، تأثرا منه بخصائص الخنخنة الكريهة والرخاوة والتخريب في صدى صوت (الخاء) في النفس ، قد جعلها في مقدمة المصادر التي تدل معانيها على أمراض وعيوب نفسية وأخلاقية وجسدية وعلى القذارة والبشاعة والفحش ، وما إليها من الرخاوة والتخريب والتفاهة والاضطراب ، بما نسبتها (80) في المئة . كما كان ثمة (13) مصدراً تدل معانيها على ما يفيد الرقة والصفاء والبضاضة ، بما يتوافق مع صوت (الخاء) مخففاً مرققاً ، منعماً ، بنسبة (5) في المئة فقط . وهذا ما يجيز لنا القول بأن (الخاء) هي سلة النفايات التي وضعها الانسان العربي في بنيان لغته الشامخ الأنيق . ولو أنهم استكشفوا خصائص صوت (الخاء) ابتداء لعثروا على حقيقة معانيها بالرجوع إلى المعاجم والنصوص . ولهذا السبب قد ابتعد العلايلي كثيراً عن حقيقة معاني معظم الحروف العربية في كتابه (تهذيب مقدمة اللغة) .

ثالثا : اعتماد خصائص الحروف العربية لمعرفة معانيها :

إن فطرية اللغة العربية تحتم وجود رابطة أصيلة بين خصائص الحروف العربية وبين معانيها . ولذلك فإن خصائصها الايمائية والايحائية هي بداهة أصول معانيها ، وليس العكس . فبدل أن ألجأ إلى النصوص لمعرفة خصائص الحروف ومعانيها كما فعل غيري ، قد بدأت بالتحري عن خصائصها أولاً ثم التحقق من توافق هذه الخصائص مع معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، متبعاً في ذلك النهج التالي :

أ – ألفظ صوت الحرف منفردا بشيء من التفخيم . وذلك لتضخيم الحركات الايمائية التي يمكن أن ترافقه ، عودة بها إلى مراحلها البكر ، قبل أن يتناولها الانسان العربي بالتهذيب والتلطيف في مرحلة شاعرية لاحقة . ثم أتأمل طريقة النطق بصوته بحثاً عن خصائصه الايمائية .

ب – ثم أتأمل صدى صوته المفخم في النفس ، بحثاً عن خصائصه الايحائية الأصلية قبل مرحلة التهذيب والتلطيف .

ج – وأخيراً ، ألجأ إلى أحد المعاجم اللغوية . فإذا كان الحرف (ذكوريا) ، في صوته قوة أو